بدلة « السنيور » مؤنس !

أما أنا فانتهيت بعد المدة المقررة من إتمام دراستى بجنيف ولم تبهرنى وظيفة المترجمين الدوليين ، وكانوا فى الجامعة كثيرًا ما يرسلوننا إلى مقر الأمم المتحدة لكى نستمع إلى المترجمين أثناء عملهم ، وكنا نتابع ترجماتهم وكنت أراهم يجلسون داخل غرف صغيرة جدًا من الزجاج ، الواحد تلو الآخر ، وكانوا يضعون سماعات على آذانهم وأمامهم مكبر صوت (ميكروفون) ويترجمون فيه ما يسمعونه إلى اللغة المطلوبة . وكانت هذه الغرف الصغيرة جدًا التى كانوا بداخلها مرقمة ، وإلى جانب الرقم كانت توجد لافتة عليها اللغة التى يترجمون إليها . وكانوا أثناء عملهم يتحولون بالفعل إلى آلات للترجمة وكأنهم فقدوا آدميتهم . وكان بعضهم مشهورين لدرجة أننا كنا نعتبرهم أبطالا أو نجوما فعلا ، وكنا نراقبهم فى مطاعم مقر الأمم المتحدة . ولكننى كنت أراهم بعد قيامهم بمهمتهم عصبيين ومتعبين لدرجة أنهم لا يستطيعون الكلام مع أحد على الإطلاق بعد الانتهاء من عملهم ، فكان معظمهم يجلس وحده ناظرًا إلى الفراغ أمامه يحاول التخلص من التوتر الذى كان فيه ، أما بعض السيدات العاملات فى نفس مجال الترجمة الفورية فكن تراهن وهن يحاولن التخلص من هذا التوتر

عن طريق شغل « التريكو » . فكانوا كلهم رغم نجوميتهم وثرائهم (فكيف تقام المؤتمرات الدولية بدونهم ؟) فى حالة نفسية وعصبية لا يحسدون عليها .

وحدث أننى تخرجت فى « مدرسة التراجمة » هذه فى الميعاد المحدد لذلك ، ولكن حدث لى موقف فى آخر فصل دراسى أثر فىّ بطريقة حاسمة ، إذ كنت أحضر محاضرة عامة يلقيها مدير قسم الترجمة هذا ، وكان اسمه « دى كلافيه » وكانت عن المصطلحات الدبلوماسية ، وكان يحضرها جميع الطلاب بدون استثناء . وكنا نجلس فى أماكننا وكل واحد منا أمامه ميكروفون ، فكان هذا الرجل يقول مصطلحا أو عبارة بالفرنسية ثم يذكر اللغة التى يريد أن يترجم إليها ثم ينادى اسما من أسماء الحاضرين . وفى هذه المناسبة طلب أن تكون ترجمة ... إلى الإنجليزية وسمعته ينادى اسمى فى المكروفون . وأنا لم أرد إذ كانت اللغات التى أعمل بها هناك الأسبانية ثم الفرنسية ثم العربية ، وكانت الألمانية لغتى الرابعة هناك ، ولكن لم تدخل اللغة الإنجليزية فى برنامجى . فنادى اسمى مرة أخرى فرددت وقلت إننى لا أعمل بالإنجليزية . فكان رد فعل هذا الرجل به مزيجا من السخرية والغضب فقال : « هل يستطيع مترجم فورى أن يعمل بدون اللغة الإنجليزية فى القرن العشرين ؟ هل يستطيع أى إنسان يعتبر نفسه إنسانًا معاصرًا أن يعيش فى القرن العشرين بدون إجادة اللغة الإنجليزية ؟ » وضحك الجميع وكان عددنا يفوق الخمسمائة طالب ، وشعرت

أننى كما يقولون « فى نصف هدومى » . وبدأت مسألة اللغة الإنجليزية تشغل بالى كثيرًا فكنت أعرف الإنجليزية طبعا ولكنها كانت لغة أعتبرها جانبية .

وحدث أننى كتبت خطابا لأبى فى الكويت وحكيت له ما حدث وسألته إن كان من الممكن أن أمضى سنة فى إنجلترا بعد تخرجى من جنيف فجاء الرد سريعا بالموافقة ، وحدث بالفعل أننى بعد أن حصلت على شهادتى من سويسرا أمضيت سنة كاملة فى لندن ، ثم التحقت بأبى وأمى فى الكويت والتحقت هناك بقسم اللغة الإنجليزية ، حيث عادلت الكلية ما درسته فى انجلترا بجزء من مواد الليسانس ، وتحوّل بذلك مجرى حياتى العملية تماما ، وأذكر أن أبى لم يلمنى لذلك بل شجعنى كثيرًا .

كان لأيام الكويت - كما قلت - طابع خاص تميزه الراحة والهدوء . وكان أبى يتناول العشاء أمام التليفزيون ثم ينزل لنزهته اليومية ثم يجلس معنا أنا وأمى أمام التليفزيون بعد عودته . وفى هذا الوقت كنا نشاهد البرامج التليفزيونية - إن كان هناك برنامج جيد - وكان أبى دائما يأكل اللب الأبيض الذى كان يلازمه دائما فى هذه الجلسات ، أو كنا نتحدث فى أمور شتى . وكثيرا ما كنا نسترجع ذكريات أيام أسبانيا .

وذكر أبى وأمى - على سبيل المثال - السفراء المختلفين الذين كانوا على رأس السفارة المصرية فى الفترة الطويلة التى أمضاها

هناك . ففى إحدى المرات وصل سفير جديد . وكان سوريا إذ كان وقت الاتحاد مع سوريا – وكان على جميع أعضاء السفارة أن يرافقوه فى يوم تقديم أوراق اعتماده للحكومة الأسبانية . وكانوا في هذا اليوم يقابلون جميعا ويصافحون الرئيس فرانكو . وفوجئ أبى بأنه كان يجب عليه فى هذا اليوم أن يرتدى بدلة من طراز « الفراك » الأوربى ، وهى بدلة سوداء تتميز بأن لها ذيلين ينزلان إلى الأسفل من ظهر « الجاكيته » . ولم تكن عند أبى مثل هذه البدلة ، وهى بدلة مكلفة جدًّا إذ بها أكثر من عشرين قطعة ما بين الصديرى وربطة العنق الصغيرة وأزرار خاصة بالكمين وأشياء أخرى معقدة للغاية . وإلى جانب تعقيدها وتكاليف تفصيلها – وهى لا ترتدى إلا فى مناسبات نادرة جدًّا – ولم يكن هناك وقت كاف لتفصيلها فكان ميعاد تقديم أوراق الاعتماد هذه قد اقترب جدا .

وناقش أبى موضوع البدلة مع سكرتير المعهد الذى كان من سماته أن يأتى دائما بحلول فى المآزق ، واقترح على أبى وعلى وكيل المعهد الذى كان فى نفس المأزق أن يؤجرا مثل هذه البدلة قائلا : إن فى أسبانيا هناك محلات متخصصة لتأجير الملابس الرسمية . فرفض أبى الاقتراح قائلا : إنه ليس من المناسب أن يرتدى مدير المعهد وهو فى نفس الوقت المستشار الثقافى بالسفارة بدلة مؤجرة وإن هذا « قلة قيمة » . فأقنعه السكرتير قائلا : إنه سيؤجرها يوما واحدًا فقط ولن يعلم بهذا الأمر إنسان فسيكون ذلك سرا

بينهما . فاقتنع أبى بالذات لأن الوقت كان ضيقا ورأى أنه ليس هناك حل آخر . فذهب هو والسكرتير ووكيل المعهد إلى هذا المحل . وعندما دخل قال لهم صاحب المحل وهو يستقبلهم : « هل أنتم تابعون للسفارة المصرية ؟ »

قالوا : « نعم . ولكن كيف علمت بذلك ؟ »

قال : « علمت ذلك من شكلكم أولا ، ثم إن جميع أعضاء السفارة المصرية أتوا إلى هنا فضحك أبى ومن معه كثيرا ، ثم قاموا باستئجار البدل ، وضبطت مقاساتها وأرسلت إلى المنزل وهى كأنها جديدة ، ومفصلة على مقاس أبى ووكيل المعهد .

وجاء يوم تقديم أوراق الاعتماد . وكانت هذه مناسبة يحتفل بها الأسبان احتفالا يقومون فيه بتجهيز قافلة كبيرة من العربات التاريخية تشدها الخيل . ويجلس داخل هذه العربات الملكية – فهى خشبية مذهبة – أعضاء السفارة المختلفون . ثم تتجول هذه القافلة فى شوارع مدريد الرئيسية حتى توصل السفير وأعضاء السفارة إلى القصر الملكى – « البلاثيو ريال » – حيث ينتظرهم الجنرال فرانكو . وكان ينشر خبر تقديم أوراق الاعتماد هذه فى الجرائد اليومية ، وكذلك المسار التى تتخذه القافلة لأن الكثيرين من الأسبان يحبون الوقوف فى الشارع للفرجة على القافلة وهى تمر .

وأخذتنا أمى – أنا وأخى – وذهبنا إلى شارع رئيسى حتى

نرى القافلة تمر ، ونرى أبى داخل العربة مرتديا بدلة « الفراك » وذهبت معنا مديرة المنزل لدينا وكانت أسبانية . وجرت العادة أنه عندما تمر القافلة أمام المشاهدين أن يصفقوا جميعا ، وكان المنظر دائما مبهرا وجميلا . ووقفنا بالفعل وانتظرنا . ومرت القافلة ، ورأينا أبى بداخل العربة المخصصة له . ولكن مديرة المنزل الإسبانية لم تستطع أن تسيطر على أعصابها وإلى جانب التصفيق جرت نحو العربة التى بها أبى وصاحت بأعلى صوتها : السينيور ! السينيور » ! وأعادها البوليس الأسبانى إلى مكانها مع باقى المشاهدين .

وبعد هذه المناسبة اضطر أبى أن يفصل بدلة « فراك » لنفسه حتى لا يلجأ مرة أخرى إلى تأجير ملابس . وأذكر أنه لم يكن يحب ارتداءها أبدا فكان يتعارض مثل هذا الملبس مع طريقته فى الحياة ، إذ كانت ملابسه دائما بسيطة وليس بها ما يلفت النظر ، فقد كان متواضعا لا يحب لفت الأنظار لا عن طريق الملابس ولا فى سلوكه مع غيره ، ومع هذا التواضع كله كان له وجود قوى أينما ذهب .

وذكرت أمى مناسبة أخرى مع سفير مصرى آخر كان معروفا بكرمه ومعاملته الجميلة لكل من حوله حيث كان مسافرا إلى مهمة من أسبانيا إلى فرنسا . فطلبت منه زوجته السفيرة أن يأتى بستين مترا من القطيفة الفرنسية حتى يجددوا بها ستائر السفارة .

وأتى السفير بأحسن نوع قطيفة وجده فى باريس . وعندما رأت زوجته القماش وجدت أنه لا يصلح للستائر لأنها كانت قطيفة من نوع فاخر تصلح للملابس . ووجدت نفسها بهذا الكم الهائل من القماش الممتاز ولا تعلم ما تفعل به . ففكرت وانتهت إلى حل وهو أنها قصت القماش إلى قطع طول كل منها خمسة أمتار وأهدت كل واحدة من زوجات موظفى السفارة قطعة قماش بدون أن تحكى لهن قصة هذا القماش . ففهمت كل سيدة مصرية استلمت قطعة القماش أنها هدية خاصة بها وحدها وبطبيعة الحال قامت بتفصيلها لكى ترتديها ففصلت كل واحدة . من السيدات « فستانا » أو « تيورا » أو معطفا أى تصرفت كل سيدة على حده بتفصيل القماش لنفسها ، وهى متأكدة أن السفيرة تعزها معزة خاصة ، وأنها لذلك اختصتها بقطعة القماش الفاخر فلم تقل أى سيدة للأخريات عن هذه الهدية شيئا . وبهذه الطريقة أصبحت كل سيدة مصرية تابعة للسفارة لها ملبس من نفس القماش . ولما عرفن قصة القماش ضحكن كلهن إذ فهمن أن معزتهن لدى السفيرة واحدة . ولكن ظهرت مشكلة وهى أين يرتدين هذه الملابس الجديدة إذ كانت معظم خروجاتهن الاجتماعية تجمعهن معًا وعادة يفقد قيمة الملبس وجماله إذا ارتدت أكثر من سيدة نفس الملبس أو ملابس مختلفة من نفس القماش فاتفقن على ألا يجتمعن بنفس الملبس فى مكان واحد ، وأصبح السيدات

يتفقن تليفونيا قبيل كل مناسبة تجمعهن ماذا سيرتدين حتى لا يأتين مرتديات ملابس من نفس القماش . وكانت هذه نادرة من النوادر ، وزادت كثيرا من الألفة بين أعضاء السفارة وزوجاتهم .

وفى عهد سفير مصرى آخر تصادف أنه كان من بين أعضاء السفارة دبلوماسيون فى العهد القديم – أى عهد ما قبل الثورة – وآخرون من العهد الجديد – أى عهد الثورة .

وكان كثيرا ما تحدث مشاجرات بينهم وكانت من عادتهم أن يلجئوا إلى أبى لكى « يفك الاشتباك » ، وعندما كانوا يتصلون به تليفونيا من السفارة ويقولون له : « تعال يا دكتور مؤنس فهناك مسألة بسيطة نحب أن نعرضها عليك » . كان أبى يفهم فى هذه الأحيان أن هناك عراكا ما فكان ينزل بسرعة البرق ويصاحبه دائما سكرتير المعهد . وكان ينزل بسرعة لأنه كان يعلم أن هذه المشاجرات غالبا ما كانت تتحوّل إلى ضرب حقيقى ، وكان دائما يعرف كيف يسوى الأمور بين المتشاجرين ، ولم أسمعه يتكلم فى البيت أبدا عن تفاصيل ما حدث لأنه كان يعتبر هذه الأشياء شخصية لأصحابها ويجب ألا يتكلم عنها أبدا . وكان من سماته أنه لا يحب النميمة ولا الخوض فى سيرة الناس بل كان يطفئ الشائعات عندما يسمعها . والناس كانوا يعرفون أن سرّهم « فى الحفظ والصون » معه . وأذكر أننى عندما كنت أذهب له وأقول إننى سمعت شيئا غير مرضٍ عن شخص معيّن فكان يسألنى

« هل رأيت بنفسك ؟ » فأقول « لا لم أره بل سمعت » . فكان يرد قائلا : « إذن فلا تتكلمى فى هذا الموضوع ولا تصدقى ما يقال . اتركى الناس تعش » .

المهم اكتسب أبى فى هذه الفترة فى أسبانيا وصف حمامة السلام ، وأصبح بعض المصريين يلجئون إليه لحل خلافات زوجية وكان غالبا ما ينجح فى تهدئة الأحوال .

وفى نفس عهد السفير المذكور طرأت فكرة جميلة بين أعضاء السفارة وهى أنهم يقومون بمباراة لعبة الشطرنج ، وفكروا أن يشترك فيها جميع رجال السفارة وأعضاء المعهد أى أبى والوكيل والسكرتير . ونظمت العملية بجدول للعب وكانوا يلعبون بعد الظهر — أى بعد ساعات العمل — سواء فى مقر السفارة أو المعهد ، وتعهدوا أن من يكسب فى النهاية — أى الفائز الأول — يفوز بكأس يشتركون كلهم فى شرائه ويقيمون له حفلا صغيرا .

وبدأت المباريات ثم التصفيات وأظهرت كثيرا من طبائع الأشخاص المختلفين فكان من الصعب جدًّا على بعض الناس أن يتقبلوا الخسارة فى لعبة الشطرنج هذه بطريقة رياضية .

وكان من أحسن اللاعبين سكرتير المعهد . وحدث أنه بعد التصفيات المتتالية أقيمت المباراة النهائية وكانت بين سكرتير المعهد وموظف كبير بالسفارة . وكسب الدورة سكرتير المعهد ، ولكن الموظف الكبير بالسفارة لم يقتنع أبدا بأن يعترف بأن رجلا أقل

منه فى الرتبة قد كسبه فى لعبة الشطرنج . ولكن – فى نهاية الأمر – حاز سكرتير المعهد الكأس المعهود وأقيمت له الاحتفالية المعهودة .

أذكر بهذه المناسبة أننا أنا وأخى كنا صغيرين فى هذا الوقت ولكننا كنا فى سن استطعنا فيها أن نتعلم لعبة الشطرنج وأن نتابع لعب من يكبروننا وأحببناها . وبعد ذلك كنا نلعبها سويا . وأذكر أن أخى غالبا هو الذى يكسب معظم الأدوار معى ، ولو حدث أننى كسبته فى مرة كان ينزعج جدا ، ولا يريد أن يكلمنى فلم يتقبل الخسارة بسهولة أبدا وكان يجب علينا أن نبدأ دورًا ثانيا حتى يكسبه هو ، فكان يعتبر هزيمته فى هذه اللعبة أمامى إهانة لرجولته .

وذكرت أمى حادثا كان وقع لأبى وهو أنه كان يعمل كثيرا جدًا فى إدارة المعهد وفى عمله الخاص أى قراءاته وكتاباته العلمية ، فكان دائما فى حالة إجهاد شديد . وحدث أنه فى يوم من الأيام سقط مغمًى عليه وهو فى مكتبه فنقلوه إلى البيت وطلبوا طبيبا ، وعندما كشف عليه طلب أن يقام له رسم قلب . فقيم به . ثم شخص التعب على أنه تعب فى القلب . لم يرض أمى هذا التشخيص لأنها كانت تعلم أن أبى لم يشك أبدا من قلبه ، ثم إن حالته لم تتحسن فاستمر وقتا طويلا يصيبه دوار إذا حاول القيام من الفراش . فاستدعت أمى طبيبا آخر . وشخّص هذا الطبيب الثانى المرض على أن الموضوع متعلق بالأذن الوسطى وهى

التى تتسبب فى هذا الدوار . وكان تشخيص الطبيب الثانى هو التشخيص السليم . ومنذ ذلك الحين وأبى يضع فى أذنه دائما قطعة صغيرة من القطن عندما يخرج من البيت وكانت أمى تذكره دائما بها .

وأذكر أننا بعد أن عدنا إلى مصر نهائيا أصبح أبى يمضى نصف النهار خارج البيت سواء فى دار الهلال أو فى دار المعارف بعد ذلك ، فكانت أمى تخشى عليه من المشروبات التى قد يتناولها إذ أنها تعلم أن الفناجين والأكواب غالبا لا تغسل جيدًا ثم إن الشاى القاتم « الكشرى » لا يُشرب ومضر للصحة . فحلّت هى هذه المشكلة ، إذ كانت — كما قلت — تخشى عليه وعلى صحته كثيرا ، فكانت تحضر له فى كل صباح « تيرموسا » تملؤه بالشاى تصنعه بالطريقة التى يحبها هو . وأصبحت — عندما يغادر البيت فى الصباح — تسأله دائما : هل وضعت القطنة فى أذنك ؟ » فيقول : نعم . ثم تسأل : هل معك « التيرموس » ؟ فيرد قائلا : « نعم » . وأصبح هذان السؤالان بمرور الزمن بمثابة النكتة التى يتبادلانها عند مغادرته للمنزل فى كل صباح . فكان يخرج أبى ممسكا بكل من « التيرموس » داخل كيس من « النايلون » ثم الحقيبة الجلدية التى بها أوراقه وكتبه فى يده اليسرى وكان يترك يده اليمنى خالية . وأذكر أن كتفه اليسرى كان أوطأ بقليل من كتفه اليمنى وذلك بسبب حمله لحقيبة أوراقه المليئة بالكتب على

أبى وهو يصافح الجنرال فرانكو فى مدريد .

مدى عمر طويل فكان يحمل حقيبته بنفسه ونادرا ما يطلب من فراش أن يحملها إلا إذا أتى فراش من تلقاء نفسه وأخذها منه .

أما « التيرموس » الذى كان يأخذه معه فله قصص وحكايات وحده . فكم من مرة نسيه فى أماكن أو فى سيارات أجرة وتنزعج أمى وتشترى « تيرموسا » آخر . وكان أبى عندما يطلع من مكتبه ويجالس أحد زملائه فى مكتب مجاور يأتى وراءه فراش « بالتيرموس » هذا لأنه يعلم أن أبى لن يشرب شيئا إلا منه .

وكل هذه طرائف ونوادر كنا نتحدث عنها فى أيام الكويت الهادئة ونحاول أن نتذكر تفاصيلها . وعندما أفكر فى الأمر الآن أجد أن كثيرًا من الشخصيات التى اشتركت فى هذه « الحكايات » قد توفوا أو لم أسمع عنهم منذ سنوات طويلة ، وكل ما بقى منهم هى الذكرى وبعض اللمحات . وكان أبى يتذكر ويحكى ويضحك ، والذى كنت ألاحظه عليه دائما أنه لم يذكر أحدًا بالسوء أبدًا فإذا حاول أحد أن يؤذيه أو يؤلمه كان يتناساه تماما ولا يذكره أبدًا .